

ملخص الرسالة باللغة العربية

تعتبر معركة مخيم جنين (1-12 نيسان 2002) من أبرز محطات الصمود والانتصار في التاريخ الفلسطيني المعاصر. ذلك أنها دشنت، ولأول مرة، نموذجاً للانتصار على الكيان الصهيوني الاحتلالي "من داخله"، إذ كانت معركة جنين التجربة العسكرية الفريدة، وتكاد تكون الوحيدة، في تاريخ الانتصارات الفلسطينية من داخل فلسطين المحتلة (بعد تأسيس دولة إسرائيل العنصرية في العام 1948 وحرمان الفلسطينيين من تشكيل حداثتهم وإقامة دولتهم) مقارنة بمعارك مثل الكرامة، وبيروت، والحصارات المتوالية على الفلسطينيين وقيادتهم التاريخية.

وتستمد هذه الدراسة أهميتها القصوى من ثلاثة عناصر أساسية: (1) أنها الدراسة الأولى التي تُعدُّ تاريخاً لصيفاً بالحدث نفسه نظراً لخصوصية أن المقاوم، الذي صار "الباحث" لضرورة أكاديمية، قادم من صميم التجربة التاريخية نفسها، وفي مراحلها المختلفة، والاطلاع، بعد ذلك، على كم هائل من الأدبيات التي دونت الحدث "من الخارج"، فكان للبعض القليل منها علاقة بـ"ما حدث فعلاً"، ولكن من نصيب من تشكيل "أسطورة المعركة" بدلاً من "تشكيل صورتها" الواقعية؛ (2) كما إنها الدراسة الأولى التي تبين مدى النقص في عملية "استخلاص العبر" من هكذا تجارب من قبل المستويين الرسمي والشعبي كما يكون عليه الحال في الطرف الصهيوني بعيد كل معركة؛ (3) إن تدوين تاريخ تفصيلي مشفوع بالتحليل السياسي والعسكري والثقافي لمعركة مخيم جنين من شأنه أن يعزز ثقافة المقاومة في ظل الاحتلال الصهيوني المتواصل وفي ظل قناعة البعض باستنفاد خيار المقاومة المسلحة، وخاصة بعد إعلان فشل خيار المفاوضات، ومحدودية ما يمكن أن يقدمه خيار المقاومة الشعبية.

تهدف هذه الدراسة إلى الإجابة على السؤال الرئيس التالي: ما هي الخصوصية التاريخية، والعسكرية، والسياسية لمعركة مخيم جنين في ربيع العام 2002؟ كما تهدف إلى إزالة ما علق بتدوين تاريخ المعركة من أسطورة وتناقض تاريخي ناتج عن عدم امتلاك المصادر المناسبة، واختلاق بعضها. وعليه، فإنه للإجابة على السؤال المركزي، تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة على أربعة من الأسئلة الفرعية التالية: ما هي الخلفيات التاريخية لاستهداف مخيم جنين أحياناً بعين الاعتبار النسيج الاجتماعي والثقافي للاجئي المخيم؟ وما هي أوديسة المقاومة التي أصبحت نموذجاً وطنياً، وإقليمياً، وعالمياً، في مقاومة الاحتلال؟ ما هي عوامل الانتصار والصمود في معركة جنين في ظل وضع سياسي وعسكري غير متوازن؟ وما هو أثر معركة مخيم جنين على المخيال السياسي والعسكري والثقافي: فلسطينياً، وإسرائيلياً، وعربياً، وعالمياً؟

وتنطلق هذه الدراسة من مجموعة فرضيات يمكن اختزالها في فرضية كبرى مفادها: إن خصوصية معركة جنين، مواجهة وانتصاراً، نبعت من قناعة لاجئي المخيم بأنه لا ملاذ آخر لهم ولا لجوء مرة أخرى؛ والتفاف هؤلاء واحتضانهم للمقاومين؛ وتوحد قوى العمل الوطني والإسلامي تحت قيادة عسكرية واحدة و"غرفة عمليات مشتركة". ونتيجة لوجود

هذه المقومات، والاستعدادات الجيدة، وتوفر القناعة وروح المقاومة والقداء، وتقبل القيادة السياسية الفلسطينية في حينه، متمثلة بالرئيس الشهيد ياسر عرفات، الذي كان محاصراً ومعزولاً في أقل كيلومتر مربع في مقاطعة رام الله، لخيار المقاومة المسلحة وما ردفه بها معنوياً من خلال إطلاق مفهوم "جنين غراد"، والتواصل المباشر مع المقاومين في الميدان. هذا، بالتضافر مع القيادة السياسية لفصائل المقاومة الأخرى التي انضوت تحت الجبهة ذاتها في مقاومة الهجمة العسكرية الصهيونية على جنين. كما تنطلق الدراسة من فرضية أن نجاح المقاومة العسكرية في جنين في ظل ترد سياسي وعدم توازن عسكري شكّل نموذجاً "لانتصار في أي مكان" على المستويات الفلسطينية، والعربية، والعالمية، كما حصل في حرب تموز التي شنتها إسرائيل على لبنان في العام 2006، وتذكير سماحة السيد حسن نصر الله- الأمين العام لحزب الله بنموذج النصر في جنين، شأنه في ذلك شأن القيادة العراقية، ونموذج الصمود في الحرب على غزة في حرب الكانونين في العام 2008-2009. ولعل آخر الفرضيات في هذه السياق تستند إلى أن نموذج الانتصار في مخيم جنين استطاع تدشين نموذج ردعي محلي في ظل ظروف عسكرية غير متوازنة.

ومن حيث المنهجية، فنظراً لخصوصية المقاوم/"الباحث" ومركزته في معركة جنين نفسها (إعداداً، ومقاومةً، وأسراً، وتحملاً للتبعات)، وكونه قد شارك بفاعلية في "غرفة العمليات المشتركة" وإدارة عمليات "كتائب الأقصى" خلال المعركة؛ وفاعلاً سياسياً من خلال تبوئه مراكز قيادية متقدمة في حركة فتح، وعضويته في المجلس التشريعي الفلسطيني... فإن الاعتماد المركزي كان على التأريخ الشخصي للمعركة. غير إنه، ولغرض المهنة البحثية والأمانة الأكاديمية، فقد عمل المقاوم/"الباحث" على دراسة الأدبيات، الثانوية في معظمها، ومقارنتها بالشهادات الشخصية والوثائق (السمعية، والبصرية، والمكتوبة) التي لديه، وتلك التي جمعها أو حررها أو ساهم في إخراجها إلى النور خلال فترة اعتقاله في أعقاب المعركة، أو من خلال فاعليته الاجتماعية والثقافية والسياسية في مخيم جنين والمشهد الفلسطيني عموماً في الفترة الحالية. هذا بالإضافة إلى مجموعة من المقابلات مع شخصيات فلسطينية من مستويات: سياسية، وعسكرية، وإعلامية.

هنا، تُكتب هذه الرسالة لا كما تُكتب معظم الرسائل والأطروحات الأكاديمية، مع وافر الاحترام لها، ذلك أن كتابتها ليست لغرض أكاديمي بحت، وإن كانت في سياق أكاديمي بحت، هو إنجاز متطلب أكاديمي لنيل درجة الماجستير في الدراسات العربية المعاصرة من جامعة بيرزيت. بل تأتي الكتابة في إطار تأمل المقاوم لتحوّله إلى "باحث" -مع-وقف-التنفيذ في موضوع مقاومته، بين ضرورات التذكّر وسياسات الذاكرة. بين من عاش التجربة، ومن يتألم منها، ومن يتأمل فيها ليخطو مع شعبه خطوة للأمام. وكمقاوم، قبل أن أكون، "الباحث" -باحثاً-مع-وقف-التنفيذ، كان هناك ثلاث محطات أساسية تم من خلالها التوثيق والتدوين للكثير من الأحداث التي ما زالت شاخصة بين باصريّ، على الرغم من مرور الأيام: (1) تدوين أحداث المعركة أثناء وقوعها (بالاشتراك مع الشهيد القائد أبو جندل) عبر عدد من الصحافيين المرافقين للمقاتلين، والتصريحات لوسائل الإعلام، وكتابة المذكرات التي ضاعت خلال المعركة؛ (2) توثيق المعركة خلال مرحلة الاعتقال، وقد ضاع معظمها باستثناء ما جاء في كتاب الأسير المناضل وليد دقة "يوميات المقاومة في مخيم جنين؟"

(3) توثيق المعركة من خلال هذه الرسالة الأكاديمية لنيل درجة الماجستير في الدراسات العربية المعاصرة من جامعة بيرزيت. وعليه، فهذه المنهجية "غير الأكاديمية البحتة" هي "منهجية النار". فالمنهجية هي أداة الوصل بين الباحث وموضوع بحثه، هي كملقط النار الذي يتخذ شكل يد حامله وينقل الطاقة من يده نحو النار كما ينقل اتجاه الحركة... لكن الباحث، حين يكون في وسط نار المعركة و"مقاوماً" بها، فليس ثمة من مسافة بينه وبين النار. وعليه، تكون أفضل المنهجيات هي "منهجية النار" نظراً وممارسةً.

وأما بنية الدراسة، فتتشكل بنية من خمسة فصول، إضافة إلى المقدمة والمرجعية (قائمة المصادر والمراجع والملاحق)، وهي:

الفصل الأول-مقدمات معركة مخيم جنين (أسئلة المقاومة وأسئلة الكتابة): يتناول تقديمًا عاماً للسياقين التاريخي والأكاديمي لمعركة مخيم جنين مع تركيز خاص على أسئلة المقاومة، وأسئلة الكتابة كثنائية أسهمت في صناعة معركة مخيم جنين كحدث تاريخي، وكموضوع للدراسة الأكاديمية التي تحاول فحص معاني هذا الحدث الاستثنائي في التاريخ الفلسطيني الحديث. يتكون هذا الفصل من مبحثين أساسيين: يظطلع المبحث الأول بتوضيح التركيبة الأكاديمية لموضوع الرسالة، من حيث: مقارنة الرسالة لمعركة جنين، صورةً وأسطورةً؛ وكيف أسهمت في بلورة إشكالية هذه الدراسة؛ وتحديد فرضياتها؛ وتطبيق منهجيتها التي تتسم بقدر عال من الفردية؛ وأهميتها؛ وصعوباتها؛ وحداً ومصطلحاتها. فيما يتناول المبحث الثاني نقداً تفصيلاً للأدبيات التي تناولت موضوعة البحث الرسالة المركزية.

الفصل الثاني: مخيم جنين في سياقه الفلسطيني: يغطي هذا الفصل مسحاً شاملاً لواقع مخيم جنين في سياقه الفلسطيني ضمن أربعة سياقات عامة: أولها، مخيم جنين في سياقه التاريخي، ويقدم خلفية تاريخية بانورامية عن مدينة جنين من العصر الكنعاني وحتى اللحظة، ومدينة جنين، ومخيمها، نشأةً وموقعاً، في التاريخ الحديث والمعاصر. فيما يتناول محور مخيم جنين في سياقه الاجتماعي، البنية الاجتماعية لأهالي المخيم، من حيث البلدان الأصلية للهجرة، ومستويات المعيشة، ومرافق الحياة الاجتماعية الثقافية والتعليمية، والجهات الراعية لها. وأما المحور الثالث، فيختص بإلقاء الضوء على مخيم جنين في سياقه العسكري. وأما المحور الرابع، والأخير، فيركز على مخيم جنين في سياقه السياسي عبر سرد موجز للصراع العربي الإسرائيلي، وبدء "عملية السلام وأهيارها"، وبخاصة بعد تأسيس السلطة الفلسطينية وتعثر تطبيق بنود اتفاقية أوسلو.

الفصل الثالث: الإعداد للمعركة-الخارطة والميدان: يعمل هذا الفصل على توصيف الأجواء التي سبقت شن العدوان الإسرائيلي على مخيم جنين، وبخاصة تصعيد الأعمال العدائية على المدن الفلسطينية، وحصار الرئيس ياسر عرفات في مبنى المقاطعة في رام الله، وتهيئة الساحة الإسرائيلية والعالمية لضربة موجعة للفلسطينيين. ويغطي هذا الفصل هذه الأجواء من إرهابات شن عملية "السور الواقعي"، كما يغطي إرهابات كسر "السور الواقعي" على يد المقاومة الفلسطينية، وذلك ببدء التجهيز لصد العدوان الإسرائيلي الذي تبنت ملامحه في اجتياح آذار 2002 لمدينة جنين، وذلك عبر البدء بتشكيل

غرفة العمليات المشتركة، ووضع الخطة العسكرية الفلسطينية للمعركة على المقاومة الفلسطينية للحيلولة دون تصفية المقاومة في مخيم جنين التي كانت هدف الحملة الإسرائيلية.

الفصل الرابع: الصورة والأسطورة (يوميات المعركة): بصير وتفصيل هائلين، يسرد الفصل الرابع يوميات المقاومة في معركة جنين من يومها ما قبل الأول (الإثنين، الموافق 2002/4/1)، وحتى اليوم التالي لانتهائها (الجمعة، الموافق 2002/4/12). وتسرد هذه اليوميات على لسان كاتب الرسالة بوصفه مشاركاً في المعركة منذ وضع الخطة وتشكيل غرفة العمليات وحتى اليوم الحادي عشر الذي تمت فيه مفاوضات إنهاء المعركة و"تسليم" من تبقى من المقاومين.

الفصل الخامس: خلاصات معركة جنين (وملاحظات نقدية): يتأمل هذا الفصل، الأخير من الرسالة، في معركة جنين بوصفها تجربة قابلة للتناسخ. وهذا "الفصل الأخير" لا يكتب بوصفه "خلاصة" كما هو الحال في معظم الرسائل والأطروحات الأكاديمية، ذلك أن الكتابة هنا ليست لغرض أكاديمي بحث، وإن كانت في سياق أكاديمي بحث. بل تأتي كتابة لهذا الفصل في إطار تأمل المقاوم لتحوُّله إلى باحث في موضوع مقاومته، بين ضرورات التذكُّر وسياسات الذاكرة. بين من عاش التجربة، ومن يتألم منها، ومن يتأمل فيها ليخطو مع شعبه خطوة للأمام. وعلى ذلك، يتناول هذا الفصل خلاصات الرسالة وخلاصة المعركة ككتلة واحدة، فيرصد محطات توثيق تجربة معركة جنين: خلال المعركة، وفي الأسر، وبعد التحرر من الأسر، وأثناء الدراسة الأكاديمية؛ ويركز على صعوبات إجراء هذه الرسالة بين "الباحث" و"المقاوم" كما يعرض بعض التأملات في "الخطة العسكرية" التي وضعتها المقاومة، و"يوميات المقاومة" نفسها بوصفها تنفيذاً لتلك الخطة أو خروجاً عنها، بالإضافة إلى مسرد خاص للدروس والعبر من ميدان المعركة، وتجربة الكتابة عنها.